عـــــروض موقعة

تناقضات الحداثة في مصر

زايد، أحمد.
تناقضات الحداثة فى مصر/ أحمد زايد.- ط٢.- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.
٢٠٨ص؛ ٢٠سم.- (مكتبة الأسرة) "مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٦"
تدمك ٤-٢٥٢-٤١٩-٩٧٧

ماجد كامل
باحث أول
بدار الكتب والوثائق القومية

صدر ضمن سلسلة إصدارات مكتبة الأسرة لعام ٢٠٠٦ كتاب "تناقضات الحداثة في مصر" لعالم الاجتماع المصري الأستاذ الدكتور أحمد زايد عميد كلية الآداب جامعة القاهرة وهو حاصل علي ليسانس الآداب قسم الاجتماع من جامعة القاهرة عام ١٩٧٢؛ حصل علي درجة الدكتوراة في علم الاجتماع من جامعة القاهرة عام ١٩٨١؛ ومن أشهر كتبه كتاب "التغير الاجتماعي" وكتاب "علم الاجتماع ودراسة المجتمع"؛ وكتاب "علم الاجتماع والنظريات السياسية والنقدية"، وكتاب "المصري المعاصر مقارنة نظرية وامبيريقية لبعض أبعاد الشخصية القومية المصرية" وكتاب "رأس المال الاجتماعي" وكانت آخر كتبه بعنوان "صور من الخطاب الديني المعاصر" وقد صدرت له طبعة عن مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٧ – أما عن الكتاب الذي نحن بصدده فهو يتكون من توطئة وتسعة فصول، ويقع في حوالي ٢٠٤ صفحة من القطع المتوسط؛ ففي التوطئة يذكر المؤلف أنه منذ بداية حياته الأكاديمية انشغل بقضية الحداثة في المجتمع المصري وما يترتب عليها من أسئلة اخري عديدة مثل "من نحن؟ ومن نكون؟ وكيف تتشكل حياتنا؟ وعلاقتنا ببعض كمواطنين؟ وكيف نستقبل أدوات الحداثة؟ وكيف نستخدمها؟ وكيف نتعامل مع التراث...؟ الخ" وكان الهدف الرئيسي للباحث من هذه التساؤلات هو فهم الحياة الاجتماعية، والطريقة التي يعيش بها المجتمع المصري الحديث .

الفصل الأول من الكتاب بعنوان (عولمة الحداثة وتفكيك الثقافات الوطنية)؛ حيث يذكر المؤلف إن المجتمعات الإنسانية عرفت ظاهرة العولمة عبر تاريخها الطويل؛ فلقد عرفتها الإمبراطورية اليونانية عبر الإسكندر الأكبر المقدوني كما عرفها الرومان والمسلمون ومن بعدهم الإنجليز والأمريكيون؛ ولقد حاول عالم الاجتماع رونالد روبرتسون تقسيم ظاهرة العولمة الي خمس حقب رئيسية هي :-

١- المرحلة الجنينية :- واستمرت في اوروبا من بواكير القرن الخامس عشر حتي منتصف القرن الثامن عشر، وشهدت نمو القوميات ونمو الأفكار الإنسانية العظمي، وبداية تبلور مركزية العالم.

٢- مرحلة النشوء :- امتدت من منتصف القرن الثامن عشر حتي سبعينيات القرن التاسع عشر؛ وهي الفترة التي تبلورت فيها مفاهيم العلاقات الدولية الرسمية، وبداية ظهور الاستعمار.

٣- مرحلة الانطلاق :- واستمرت من سبعينيات القرن التاسع عشر حتي عشرينيات القرن العشرين، وتم فيها إدماج عدد أكبر من الدول في المجتمع الدولي، وتزايدت أشكال الاتصال الكونية وظهرت الصراعات الدولية وصور التنافس الدولي السلمي.

٤- مرحلة الصراع من أجل الهيمنة استمرت من عشرينيات القرن العشرين حتى أواخر الستينيات؛ وهي المرحلة التي تعاظمت فيها الحروب الفكرية، وظهور العالم الثالث، وإرساء مبدأ الاستقلال الوطني.

٥- مرحلة عدم اليقين وهي التي تجسد الصورة المعاصرة للعولمة.

لقد دخل العالم اعتبارا من عام ١٩٧٣ -علي وجه التحديد- مرحلة جديدة وهامة من تاريخه ؛فلقد دخلت الرأسمالية في أزمة كساد جديدة دفعتها إلي تطوير آليات جديدة تواجه بها الأزمة وتتجاوزها بسلام، كما تجاوزت أزماتها السابقة ويلخص المؤلف خصائص العولمة في النقاط التالية :-

١- هي ثقافة يصاحبها في الغالب خطاب تقني وعلمي؛ وتهدف إلي تحقيق أهداف اقتصادية (الربح) وسياسية (خلق هيمنة للثقافة الحديثة).

٢- هي ثقافة نخبوية تُفرض من أعلى دون أن تكون لها قاعدة شعبية .

٣- هذه الثقافة النخبوية شكلت مجموعة من البشر تجمعهم المعرفة لعالم المعلومات ؛وهو ما عرف بـــ "المجموعات الافتراضية". ولقد عرفها أحد علماء الاجتماع بقوله (إنها مجموعة من التجمعات الاجتماعية التي ظهرت عبر شبكة الإنترنت عندما يدخل عدد معين من البشر في مناقشات عامة عبر فترة زمنية كافية من الوقت يجمعهم شعور إنساني كافى بحيث يبدأون في تكوين مواقع للعلاقات الشخصية عبر الفضاء الإلكتروني. ولكنهم يتفاعلون عن بعد).

٤- ثقافة العولمة مرتبطة ارتباطا شديدا بثقافة الاستهلاك بمعني أنها تفرض على

المجتمعات الواقعة خارج نطاق الحضارة الغربية صورا من الاستهلاك لم تكن تعرفها، وساعد علي ذلك تحكم الدول الرأسمالية في وسائل الاتصال والإعلان .وفي طرق التجارة وسيطرتها على الشركات العابرة للقارات.

٥- هي ثقافة تخلق نماذج وصيغ موحدة عبر العالم؛ ففي المجال الاقتصادي ظهرت السوق الحديثة ذات الطابع الرأسمالي محل السوق التقليدية، وفي المجال السياسي ظهر نموذج الدولة القومية وقيم الحرية والديمقراطية .... الخ . وفي المجال الثقافي ارتبطت الحداثة بقيم الفردية والتحلل من أشكال المجتمع التقليدية .

الفصل الثاني من الكتاب بعنوان "أطروحات حول التفكك الاجتماعى" ويعالج المؤلف في هذا الفصل مفهوم "التفكك الاجتماعى "Social Disorganization’’ ، وهو مفهوم يشير إلى حالة قريبة من الفوضي وهي نقيض حالة الاستقرار والثبات .ويحاول المؤلف في هذا الفصل تحليل أسباب التفكك فيصل إلى أن التفكك هو محصلة لتراكمات تاريخية، ومن ثم ففهم البناء الاجتماعي في سياقه التاريخى، وهي تراكمات تتصل بالتغيرات الاجتماعية والثقافية التي مرت بمصر بدءا من الحملة الفرنسية ومشروع محمد علي وتطورها عبر الاستعمار البريطاني لمصر في بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر؛ ثم الحركة الليبرالية في النصف الأول من القرن العشرين؛ ومع ثورة يولية ١٩٥٢، ثم أخيرا التطورات التي طرأت علي المجتمع المصري اعتبارا من منتصف السبعينيات وبداية الانفتاح الاقتصادي ...الخ . هذه الظروف مجتمعة خلقت بناءاً اجتماعيا على درجة كبيرة من عدم التجانس الذي جعله بدوره أكثر قابلية للتفكك؛ ومن علامات هذا التفكك يذكر المؤلف ما أسماه بألية إدراك الحدود Territoroterialization ؛ ويقصد بها ميل النظم الاجتماعية والمناطق الجغرافية والأفراد إلى التحصن في حدود داخلية بحيث لا يتصل بينها فعل اجتماعي متصل يمكن التنبؤ بمساره، وتخلق حالة من أشكال التحصن خلف الحدود، وهنا تتفتت "النحن" خلف "الآنا"، ولقد شمل التفكك أيضا البناء الطبقي في مصر وانعكس أيضا علي الثقافة .

الفصل الثالث من الكتاب بعنوان (الإسلام وتناقضات الحداثة) ويعرف المؤلف الحداثة Modernity (إنها نظام للحياة الاجتماعية والثقافية ظهر في أوروبا منذ القرن السابع عشر ارتبطت بحركة التصنيع، والتحضر وتقدم التكنولوجيا، وسيادة قيم العلم، ونشأة الدولة القومية، واتساع نطاق السوق الرأسمالية)؛ فهي قرينة البحث الذي لا يتوقف لكشف أسرار الكون والارتقاء الدائم بوضع الإنسان في هذا الكون من المنظور السياسي والاقتصادي؛ غير أن المؤلف يفرق بين ما أسماه "الحداثة الأصلية" و"الحداثة المصدرة" التي صدرها لنا

المستعمر الأجنبي، والتي أفرزت ظواهر "التبعية والاستغلال وسطوة الخرافة وظهور الحكم المطلق .... الخ". والخطاب الديني التقليدي يثير انتقادات عنيفة ضد الحداثة ويتهمها أنها ثقافة متحللة فقدت الأخلاق والقيم والقدرة علي إسعاد الفرد؛ ويعطي المؤلف في نهاية الفصل خمسة أنماط للتدين في المجتمع نلخصها في النقاط التالية :-

١- النمط الأصلى archetype للتدين :- وهو النمط الذي عرفه المجتمع المصري لفترات طويلة ويقوم السلوك الديني هنا علي أداء الواجبات الدينية الأساسية، ويشكل التدين فيه مصدرا هاما لتحقيق الرضا والقناعة. وهذا النمط لا تظهر فيه أي مبالغات في الممارسات الدينية، ولا يهتم بإظهار تدينه للآخرين. كما أنه لا يهتم كثيرا بزيادة معلوماته الدينية.

٢- النمط الطقوسي Ritual :- وفيه يتحول الدين إلى مصدر أساسى للأخلاق، وهو هنا لا يكتفي بأداء الفروض الدينية ولكنه يسعي نحو زيادة معلوماته الدينية. ومن الرموز الدينية المصاحبة لهذا النمط ارتداء الحجاب بالنسبة للنساء والحرص على الصلاة بالمسجد وأداء الحج والعمرة، وهكذا يتحول التدين إلى طقوس وممارسات.

٣- النمط الشكلاني : Formalistic :- ويتسم فيه التدين بالمظهرية؛ فيحرص علي ارتداء الثوب الأبيض أثناء الذهاب إلى المسجد ؛وحمل المسبحة؛ وإطالة اللحية، وتكرار الحج والعمرة؛ فضلا عن الخطاب المتخصم عن الدين والأخلاق وتوجيه اللوم إلى الآخرين الذين لا ينصاعون للتعاليم الدينية دون أن ينعكس كل ذلك علي السلوك العملي .

٤- النمط النشط سياسيا:- Activities :- وهو يصبغ التدين بصبغة سياسية تتمرد علي الواقع وترفضه ؛وفيه يحاول فرض التدين علي المجتمع بالقوة.

٥- النمط الأبوي : Patrinomal:- وهو يستخدم كل مفردات التدين الشكلي استخداما سياسيا واقتصاديا .

ولا شك أن كل هذه الأنماط من التدين ليست ثابتة ولا جامدة وأنها قابلة للتغير من فترة إلي أخرى.

الفصل الرابع من الكتاب بعنوان "الحداثة والتكامل الخطابي" فلقد تأسست الدولة المصرية على أساس مبدأ المواطنة وسيادة القانون؛ الذي يطبق علي الجميع حكاما ومحكومين، ويترتب علي ذلك تكوين أجهزة سياسية لا علاقة لها بالنظم الإمبراطورية القديمة. ومن هنا يتشكل الخطاب السياسي للدولة والذى يلعب فيه الدين دورا رئيسيا وأساسيا في تشكيل ملامحه بحيث تصبح مهمة رجال الدين تقديم فتاوي دينية في بعض القضايا التى أفرزتها الحداثة مثل (فوائد البنوك؛ تنظيم الأسرة؛ زراعة الأعضاء؛ الاستنساخ؛ الموقف من العلم والحضارة الغربية .... الخ) كما يحاول الخطاب الديني أن يضفي طابعا إسلاميا على كل منتجات الحداثة؛ حيث يبحث في الأحوال

الدينية لمختلف الأيدلوجيات الحداثية "الاشتراكية، والليبرالية، والقومية" ومختلف المفاهيم الحداثية مثل "الحرية، المساواة، الديمقراطية" ومختلف النظم الاقتصادية مثل "الادخار، الاستثمار، الإنتاج".

الفصل الخامس من الكتاب بعنوان "الحداثة وتشكل الذات" فلقد انشغل علم الاجتماع عبر تطوره بمفهوم ومشكلات الإنسان. والمتأمل لتطور التنظير في علم الاجتماع يكتشف أنه قد شهد تحولين رئيسين لهما دلالتهما فيما يتصل بمشكلات الإنسان وهما:

١- التطور في مجال الاهتمام بوحدة التحليل الرئيسية؛ فلقد انشغل علم الاجتماع في بداياته الأولي بالبناء كوحدة كلية (ظهر ذلك في أعمال ماركس، ودوركايم، وفيبر) ولكن مع تطور الأنساق المعرفية للعلم ظهر تركيز علي الفعل actor، والذات self، والهوية identity . في أعمال رايت ميلز. والمدرسة التفاعلية الرمزية، والمدرسة الظاهراتية الاجتماعية. ولقد انشغل كثير من علماء الاجتماع العرب بدراسة مشكلات المجتمع العربي؛ ومن بينهم يذكر المؤلف دراسة د/ مصطفي حجازى بعنوان "التخلف الاجتماعي؛ مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور" وهي أول دراسة اهتمت بشرح ظروف القهرالتي يتعرض لها الإنسان العربي وأرجعتها إلى خصائص نفسية في الإنسان العربي منها: التوحد مع أهداف المتسلطين عليه، القاهرين له، محاولا أن يستشبه بهم ويتوحد مع أهدافهم.

الدراسة الثانية التي يعرض لها المؤلف هي: "اغتيال العقل" للاستاذ الدكتور برهان غليون"؛ حيث يؤكد غليون أن التطورات التي مر بها المجتمع العربي سياسيا وثقافيا وأيديولوجيا قد أدت به إلى أزمة لها أبعاد روحية ومادية انعكست بالتالي علي الإنسان العربي الذي فقد الأمن والطمأنينة وزوال اليقين مع الميل إلى التطرف و التبرم بكل ما هوقائم ونقده دون تمييز . وجوهر هذه الأزمة من وجهة نظر غليون هي الوعي الثقافي العام وهي تكشف عن ضياع العقل واغتياله بين أنصار التراث وأنصار الحداثة. وأن عدم حسم هذا الصراع قد أدي إلى سد الطريق أمام الحداثة مما أدي إلى فقدان الهوية الحضارية. الدراسة الثالثة التي يعرض لها المؤلف لباحث إيراني يدعي "شايغان" وله دراسة هامة بعنوان "النفس المبتورة" حاول أن يربط فيها بين تكوين الذات وبين نمط الحداثة السائدة في المجتمعات الإسلامية؛ فلقد أدي الخلل بينهما إلي ما أسماه الباحث بـــ "الذات المبتورة" والتى أدت بدورها إلى (تخلف الوعي – الفصام المعرفي– الرغبة في التفرنج والتأسلم في نفس الوقت – وخلق عوالم مصطنعة لا علاقة لها بالواقع المعاش .... الخ)

الدراسة الرابعة للدكتور علي زيعور وهي بعنوان: "التحليل النفسي للذات العربية"؛ حيث أثبت إن الشخصية العربية مصابة بالقلق، والتخلخل في القيم، وعدم

الشعور بالأمن والانتماء ارجع هذه الأعراض إلي:-

١- الأساليب السلفية في التنشئة الاجتماعية.

٢- استمرار فكر التراث والأسطورة في البنية النفسية اللاواعية للذات العربية.

٣- علاقة بين الذات العربية والحضارة الغربية المتفوقة تكنولوجيا وثقافيا.

ويصف الدكتور زيغور الذات العربية أنها ذات نرجسية باحثة عن البطولة.

الفصل السادس من الكتاب بعنوان: "خمسون عاما من التغير في مصر تجربة الحداثة فيما بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ " ويعدد المؤلف الصعوبة المنهجية لمثل هذا النوع من الدراسة ويلخصها في كبر حجم قطاع الدراسة الذي يشمل المجتمع المصري كله، وطول الفترة التاريخية بكل ما شهدت من صراعات وتغيرات، والصعوبة المنهجية الثالثة هي طبيعة النظرية الحاكمة لدراسة التغير الاجتماعي واختلافها من باحث إلى آخر. ولدراسة التغير الاجتماعي فلقد توجهت الدولة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ إلى إصدار قوانين تهدف إلي تدخل أكبر للدولة في ملكية وسائل الإنتاج من خلال قوانين الاصلاح الزراعي. ولقد أدت هذه التغيرات إلى أن تصبح للطبقة الوسطي كلمة مؤثرة في المجتمع المصرى؛ فأصبحت تدير المشروعات الاقتصادية التي تملكها الدولة. وامتد نفوذها إلى المجال الاقتصادي والعسكرى. ولكن عندما جاء منتصف السبعينيات بدأت الدولة في التوجه نحو اقتصاد السوق الذي يعتمد علي المبادرات الفردية، وحرية الحركة لرأس المال، ولقد اعتمدت اليات نقل الحداثة في المجتمع المصرى إلي ما أسماه المؤلف ب"التحديث القسري أو السلطوي" بمعني التحديث الذي ينصب علي المجتمع من أعلى وليس من إرادة المجتمع. وإلي الانتقائية العشوائية بمعني انتقاء أفكار معينة وتطبيقها بطريقة غير منظمة. ففي الستينيات أفكار ونظم اشتراكية، وفي السبعينيات أفكار ونظم ليبرالية. أما عن منتج هذا التغير الإجتماعي فلقد حدث نوع مما أسماه المؤلف: "العوالم المتجاورة" بمعنى تواجد أحدث الوسائل التكنولوجية جنبا إلى جنب مع أشد الأفكار البدائية تخلفا، وكانت ملامح المنتج الثقافي في النهاية كما يلي :-

١- تضخم البناء الفوقي بمعنى تضخم أجهزة الدولة بالمقارنة بغيرها من الأجهزة مما أدي إلى شيوع ثقافة الاستهلاك في المجتمع المصري.

٢- هشاشة الثقافة المدنية نتيجة لتقدم المظاهر المادية مع تخلف النظم الثقافية.

٣- غياب المفهوم الاجتماعي للمواطنة.

٤- العودة إلى الماضي.

الفصل السابع من الكتاب بعنوان: "إشكاليات الحداثة في مصر وتأسيس المجتمع المدني وخصوصية الحداثة العربية" فلقد نشأ المجتمع المدني في مصر إما تقليدا للغرب، وإما من قبل أفراد عبر مبادرات فردية، أو من قبل الدولة ؛اما عن أشكال المجتمع المدني فهي متدرجة وتبدأ من أول

التنظيمات القرابية من داخل القرى أو في الأحياء الشعبية لحل المنازعات القبلية، ومن أشكال المجتمع المدني أيضا الجمعيات التعاونية، وأيضا التجمعات الأهلية التي تستهدف تنظيم رحلات حج وعمرة، او التي تكفل وترعي الأطفال الأيتام، ثم جمعيات حقوق الإنسان، والمحافظة علي البيئة، وجمعيات رعاية مرضي السرطان والكلي ... الخ؛ وتأتي الأحزاب والنقابات المهنية من ضمن أشكال المجتمع المدني. أما عن إشكاليات تأسيس المجتمع المدني؛ فلقد لخصها المؤلف في النقاط التالية :-

١- إن هذه الأشكال من المجتمع المدني لا يمكن تشبيهها بأشكال الحداثة في مركز الحداثة الكوني "ويقصد بها المجتمعات الغربية التي ظهر فيها المجتمع المدني أصلا" واننا بصدد ازدواجية بين العلاقات التقليدية القديمة والعلاقات المدنية الحديثة؛ وهي في حالة المجتمع المصري تسير جنبا إلي جنب مع المؤسسات والممارسات الحديثة.

٢- كان يفترض في هذه الممارسات الحديثة أن تكون أكثر كفاءة من الأساليب التقليدية في تحقيق أهدافها؛ ولكن الواقع يكشف عكس ذلك فما زالت الأساليب التقليدية تلعب دورا فعالا في ضبط أساليب الحياة داخل المجتمع الريفي في مصر.

٣- ما زالت الطبقة الوسطى هي المسيطرة علي المجتمع المدني ومن هنا فإنه يمكن تفسير عدم فاعلية مؤسسات المجتمع المدني من خلال عدم فاعلية الطبقة الوسطي نفسها، وعدم قدرتها على بلورة سياسية وطنية مستقلة.

٤- إن معظم تركز السلطة في المجتمع المدني متركزة حول شخص واحد ومن هنا يسيطر الشكل التقليدي علي تنظيماتها فهي لا تعبر عن حركة جماهيرية صاعدة بقدر ما تعبر عن مصالح عدد قليل من الأفراد هم المسيطرون عليها بالفعل.

٥- وأخيرا فإن فاعلية المجتمع المدني هي جزء من فاعلية النظام السياسي للدولة؛ فالدولة في البداية والنهاية هي الراعي الرسمي للمجتمع المدني، والخبرة التاريخية أثبتت أن المجتمع المدني يزدهر إذا ما أتاح النظام السياسي قدرا من الحرية والمشاركة للمواطنين والعكس صحيح .

ونصل مع المؤلف أخيرا إلى الفصلين الثامن والتاسع من الكتاب؛ ففي الفصل الثامن: يعرض لقضية "النخب بين المجال السياسي والمجال الاجتماعي" ويقصد بالنخب هنا فئة قليلة من البشر يتحقق لهم قدر من السيطرة والتحكم في الفئات الأخرى. أما الفصل التاسع والأخير من الكتاب فهو بعنوان "استمرار ثقافة الإمبراطورية في الممارسات السياسية المعاصرة" ويرصد فيه المؤلف استمرار الثقافات الشعبية التقليدية مع وجود الدولة بمعناها الحديث، ويضرب المؤلف نموذجين لتوضيح الفكرة: النموذج الأول هو نظام البيعة وهو النظام الذي بمقتضاه يعترف عدد معين من الأشخاص

بشخص ما رئيسا للدولة؛ ولكنها أصبحت مرتبطة بالقوة والنفوذ العسكري، وظهر تجديد البيعة ليس فقط للحاكم وإنما لولي العهد كذلك؛ وكان التغير الثالث في إجراء البيعة أن الحاكم لم يكـن بحاجـة إلى أخذ البيعة من رعاياه وإنما من الخاصة المحيطين به الذين يمثلون مراكز القوة، والعكس صحيح.

وتلجأ الدولة إلى سياسة ما أسماه المؤلف بـــ "إضفاء الشرعية علي النظام" وذلك من خلال:-

١- إعطاء انطباع من جانب مراكز السلطة بأن الدولة مستقرة ولا يوجد بها أي صراعات.

٢- يقوم بالتعبير عن الولاء للدولة أشخاص لهم مصالح فردية ويهدفون بذلك إلى ضمان المكانة والمصالح الشخصية.

٣- يعكس التعبير عن الولاء وجود لغتين للسياسة اللغة الأولي هي التى يجري الحديث بها في العلن، واللغة الثانية هي لغة الحياة اليومية العملية.

والخلاصة أن عملية إضفاء الشرعية للدولة أو نزعها يتأثر بأيديولوجيا الدولة؛ فحين تكون إيديولوجيا الدولة واضحة وشاملة نسبيا لا تواجه الدولة أي أزمة شرعية.